العنوان و النص الموازي في ديوان الصبابة

د.أحمد موساوي
جامعة ورقلة

وقف روبرت شولتز عند العنوان وقال بأنه هو الذي يوجد النص ويكونه . فانطلاقا من هذا التصور و التوجه السيميائي في معالجة النص الأدبي و محاورته والغوص في أعماقه سنعمل على التقرب بلين و هدوء من الشكل والآليات التي مكنت العنوان من إيجاد النص و تكوينه في المدونة التي سنسعى إلى مقاربتها و الكشف عن بعض دلالات النص من خلالها. وهي تتمثل في كتاب ديوان الصبابة لابن أبي حجلة التلمساني.

فقد جمع المؤلف التلمساني بين دفتي سفره كل ما يتعلق بالعشق و العشاق من أخبار و حكايا فيها العجيب و الغريب و فيها ما يصدقه العقل البشري و منها ما لا يقبله عاقل.

و لكن يستسيغه الأديب و الفنان و عاشق الخيال و الإبداع و يجد فيه لذة و متعة تنساب به إلى الجنة التي تحدث عنها رولان بارت.

والكتاب يفتتح الموضوع بالوقوف عند المصطلحات المتباينة في تسمياتها والمتلاقية و المتماسة في جانب من دلالاتها ومعانيها فيصنفها و يعددها في أبواب كحديثه عن الحب والعشق والغرام والهيام والصبابة والوله...وغيرها.ومستمدا ومستعينا بالموروث العربي نثره و شعره أخباره وأغانيه في جمع و تقديم المفاهيم.و يوال المؤلف تشكيله للمدونة بالحديث عن كل ما يتعلّق بالحبّ و أصحابه من العشق بالنظرة الأولى و الغيرة و الرسائل و المراسيل و تغير ألوان العشاق إلى أن يصل إلى من انتهى في عشقه قتيلا أو شهيدا و هذا الباب الأخير والعنوان الفرعي هو المعول عليه و المقصد من هذه المقاربة.

و إذ تم الانتقاء و الاختيار ،فسنختبر العنوان و النص الموازي الذي يتماثل بين أيدينا في شقين ،الشق الأول الرئيس و الأساسي هو (ديوان الصبابة) و العنوان الفرعي الأول الذي يمثل الشق الثاني و هو (في ذكر من مات من حبه و قدم على ربه من صغير كبير و غني و فقير على اختلاف ضروبهم و تباين مطلوبهم) ،و كذا العنوان الفرعي الثاني و المكمل (فمنهم شقي و سعيد و منهم قتيل) .

فهذا النص الذي نقلب صفحاته بين أيدينا يجمع بين النثر و الشعر ،بين الأخبار و الحكايات التي انتقاها أبن أبي حجلة التلمساني ،و مقدمة الكتاب تسهم في إيضاح هذه الثنائية التي بني عليها النص من الداخل و من الخارج « ....أما بعد فإن كتابنا هذا ،كما قيل :

كتاب حوى أخبار من قتل الهوى

و سار بهم الحب في كل مذهب

مقاطيعه مثل المواصل لم تزل

يشبب فيه بالرباب و زينب

فهم ما هم ،تعرفهم بسيماهم ،قد تركهم الهوى كهشيم المحتضر ،و أصبح من علة الجوى على قسمين (فمنهم من قضى نحبه و منهم من ينتظر) فهم ما بين قتيل و شهيد ،و شقي و سعيد ،على اختلاف طبقاتهم و أشكالهم و تباين مراتبهم وأحوالهم ...« .

ومن خلال التفاتة تواصلية مع العنوان يحيلنا مباشرة على الكثير من العناوين و المصادر المختلفة و الكتب التي عالجت الموضوع نفسه و هو موضوعة العشق و العشاق ،محققا بذلك نوعا من التداخل النصي أو التناص، و الذي لا يخفيه الكاتب بل يدعمه عن طريق ذكر و تعداد مرجعيات عمله ذاك، فمقدمة ديوان الصبابة تحوي عناوين عدة كمقامة العشاق ،و منازل الأحباب للشهاب محمود ،و طوق الحمامة لابن حزم ،مما يشكل مرجعية للكتاب حيث تتقاطع الأخبار و النصوص و الموضوعات و تتلاقح فيما بينها، وينضاف إلى تلك العناوين بعض المؤلفات التي تظهر بين دفتي الكتاب كالزهرة لابن داود الظاهري وروضة المحبين لابن القيم و تحفة الظراف لأبي عمر النوفاني و غيرها ... .

فالوظيفة التناصية للعنوان هنا تحققت و تكشفت من خلال العلامة السميائية التي تشكله ،إذ أحال من خلالها على نص خارجي تلاقح و تحاور و أقام معه علاقات عبر نصية أطرت ذلك الحوار مع المحيط النصي و مع عالم الثقافة التي تشكلها النصوص السابقة و المعاصرة لديوان الضبابة .

وإن الموروث العربي الذي وصلنا عبر الشعر العربي الذي أطلق عليه مصطلح (ديوان العرب)، إضافة إلى النثر العربي الذي تنوعت مصادره إلى درجة أنه لا يمكننا إحصاؤها وحصرها لكثرتها ،فإن هذا الموروث تشير إليه العلامة (ديوان الصبابة) ،هذا العنوان الذي عد في شقه الأول (ديوان) حافظا و حاملا لأشعار العرب و أخبارهم و عاداتهم ومعتقداتهم ،وفي شقه الثاني (الصبابة) حيث يضيق التوجه و يضبط الموضوع أكثر فيختص في أشعار أخبار العشاق و أصحاب الصبابة و الذي تناوله الشعراء و مؤلفو المدونات النثرية و السردية ،و مصادرنا العربية المتنوعة أكبر دليل على ذلك ،و إن مزاوجته هنا بين السردي النثري و الشعري كتنوع للخطاب يسعى من خلاله لإقامة نوع من الحوارية بين شكلين أدبيين متميزين كلا له طبيعته وخصوصيته ،و هذا لتحقيق نوع من الطبقات الدلالية لتثرى القراءة و يتكثف محتوى الخطاب .

فقد جمع العنوان الرئيس هنا بين ما يدل على الشعر و ما يحيل على النثر ،من تنوع النصوص و الموضوعات في مجال الصبابة و العشق ،و ما يثير الاهتمام أكثر في توجهنا هذا هو تناسل مجموعة من الدلالات تحت ذلك العنوان الرئيسي و التي ارتسمت و تجسدت في عناوين و نصوص موازية فرعية و مختلفة ،تناوبت في معالجة موضوعات العشق بالحديث مرة عن دلالات العشق و مرة أخرى عن مراتبه ،و أخبار المحبين ،و العشاق من النظرة الأولى و الغيرة ... .

و كان العنوان الرئيس و ما تلاه و لحقه من عناوين فرعية بمثابة الرمز العام لما يحويه من دلالات و إيحاءات تحيل على كون سيميائي يمثل النص (ديوان الصبابة).

و هكذا ينفتح العنوان على حقول دلالية متباينة و مختلفة، و يحقق في الوقت نفسه تشكيلا لوظائف رمزية مشفرة بنظام من العلامات دال على عالم من الإحالات، فالعنوان بمثابة بؤرة للنص يمدنا بزاد ثمين لتفكيك النص و دراسته .

سينكشف لنا ذلك التواشج و التعالق العميق الموجود بين تلك العناوين الفرعية ،و بين العنوان الرئيس و ما تقرع عنها من عناوين جزئية تصب كلها في باب العشق و الصبابة و تتكثف دلالاتها و معانيها في تلك العلامة الكبرى (ديوان الصبابة) .

و إن تناثر أخبار العشاق و أشعارهم و أوصافهم و ألامهم و حرقاتهم ،إضافة إلى المرويات و المواقف و الأحداث التي اندرجت تحت الحكايات التي سنقف عندها ،تشكل مجموع مشاهد حول قتلى و شهداء العشق ،و إن دلالاتها تنكشف للقارئ عبر عناوينها الجزئية و التي أطرتها إشارات و علامات تدلل لأول ما تدلل على الصلة الوثيقة و الوشيجة القوية مع العنوان الرئيس الذي يعد بالفعل عنصر ضروريا لتشكيل الدلالة .

و يمكننا من هنا الغوص أكثر في النص و دلالاته ،فنقول إن العنوان الفرعي يتكون من مفردات عدة منها (مات –حبه–صغير–غني–فقير –اختلاف...) ،و أما العنوان الفرعي الثاني فيحوي مفردات إضافية كـ(الشقي و السعيد ،القتيل و الشهيد) ،و هي مفردات لا تبتعد كثيرا عن حقل العشق و الصبابة ،فيتنوع أصحابها من حيث العمر و المرتبة و المكانة ، و من حيث الصفة ،شقاء أو سعادة و كذا من حيث النهاية قتيلا أو شهيدا ،و هي كلها سمات تحيل عل كل عاشق عانى من الحب و حرقته في القديم و الحديث .

و ينبني العنوان الفرعي الأول على ثنائية تكشف أول ما تكشف الدلالي ،فتحيل على ثنائية الخير و الشر في الحياة ،السعادة و الشقاء و التي طعمت بالتوجه الإسلامي فكشفت عن الإيديولوجية و الأبعاد الدينية الثنائية التي انبنى عليها النص شعرا ونثرا ،و كذا الأساليب السجعية التي اعتمدها الكاتب في كتابته و هي مبثوثة في ثنايا النص و في أغلب عناوينه الفرعية نذكر منها (صفرة وجل/حمرة خجل ،عقد

اللسان /سحر البيان ،ذكر الإشارة/الوصل و الزيارة ، سحر الجفون/نبل العيون...) ،إلى غير ذلك من الأساليب التي تحيل على أسلوب الكتابة في عصر الكاتب و تكشف عن ذلك الخيط الرفيع الذي يربط أجزاء الكتاب .

وتنسحب هذه الثنائية من المستوى الإشاري العلامي إلى المستوى و الفكرية التي يحملها النص أو يحملها الكاتب لنصه، فهذه العنونة الجزئية (قتيل/شهيد) ،تؤكد ذلك و تجعلنا ندرك أن الثقافة الإسلامية تمثل أيضا واحدا من المرجعيات الأساسية للنص ، و أن هذا العنوان الفرعي يسهم في الكشف عن هذه الدلالات و يعد وسيلة استنطاق و استكناه البنيات الدلالية ،فالعشق منه ما يسبب الشقاء و منه ما يسبب السعادة وفق هذا المنظور ،فالعشاق قتلى و شهداء ،فالتصنيف لم يبن هنا على طبيعة و خصائص الأحوال النفسية و العاطفية بل على العقيدة ،فمن أناب و تاب و عاد إلى ربه حصل على الشهادة و السعادة و من انحرف و كفر فهو قتيل شقي .

فالشقاء و القتل يقابل السعادة والشقاء و العنوان الفرعي قتيل/شهيد يحيل على ذلك التصور الذي يحمله النص و يخزنه . و مثال ذلك حكاية العاشق المسلم للمرأة النصرانية الذي قارب الموت و نتيجة مخافته من عدم اللقاء مع المحبوبة في الدنيا و في الآخرة تنصر لعله يلقاها هناك مع النصارى. و في الوقت نفسه كانت على فراش الموت فقالت . أنا ما لقيت صاحبي في الدنيا و أريد أن ألقاه في الأخرى. و أنا أشهد أن لا إله إلاّ الله و أنّ محمدا رسول الله ثم ماتت.....

فالحكاية هنا تكشف عن الشخص القتيل و الشخص الشهيد من منظور النص و رؤية صاحبه. فمنهما من ...ابتلي من فراق محبوبته و دينه بداءين.... من....أصبح بكفره و إسلامها على شفا جرف هار .....

و لا تخلو حادثة أو حكاية عن عاشق و عاشقة من أخبار اعتمدت على السرد والأشعار التي تدعم التوجه العام للنص و لا تنفصل أبدا عن العنوان الرئيسي الذي يؤطر و يسهم في استمرارية الإبلاغ و التواصل التي تعد واحدة من وظائف العنوان . والتي يجسدها مقطع الديوان . فتجد المراوحة و المزاوجة في بنية النص بين ما هو قص وسرد –الصبابة – و بين ما هو خيال و شعر –الديوان– فالعنوان في هذه الحالة بمثابة نص كلي . و الخطاب النصي يشكل أجزاءه و تفرعاته التي لا تنفصل عنه بل تبقى محافظة على انتمائها إلى ذلك الرحم.

نواصل استعارة الأمثلة و الشواهد من ديوان العشق فندرج خبر ذلك الشاب المسلم الذي عشقته نصرانية و هو لا يريدها فلما أعيتها الحيلة معه أعطت رجلا مائة دينار ليصور لها غلامها ففعل فبدأت تجلس كل يوم قبالة الصورة تبكي وتقبلها و مازالت على تلك الحال حتى صارت مثلا و سرعان ما بلغها موت الغلام فباتت إلى جنب الصورة تلثمها حتى فارقت الحياة تاركة أبياتا على الحائط..

يا موت دونك روحي بعد سيدها

خذها إليك فقد أودت بما فيها

أسلمت روحي للرحمن مسلمة

و مت موت حبيب كان يعصيها

لعلها في جنان الخلد يجمعها

يوم الحساب و يوم البعث باريها

مات الحبيب و ماتت بعده كمدا

محبة لم تزل تشقي محبيها

و لما بلغ المسلمين ذلك حملوها ودفنوها إلى جنبه.تلتقي مقاطع هذه الحكاية وعناصرها مع العنوان الفرعي قتيل/شهيد فهو يحيل على نسبة من العشاق حققوا الشهادة التي ضمنت لهم الفوز بالجنة في مقابل القتلى الذين لا مكان لهم فيها. فالنهاية السعيدة التي تحقق السعادة الأبدية هي الموت مسلما فالنصرانية أنقذت نفسها بإعلان إسلامها فسلوكها مع صورة الغلام سابقا لا يحقق ذلك المقصد و لا يحقق الشهادة و لكن التصريح و الإشارة إلى التوبة في الأبيات الشعرية –أسلمت روحي للرحمن سلمة– كشف عن ذلك فكانت علامة على توجه مختلف و إشارة إلى تصور إيديولوجي يؤطر النص و دلالاته و يحقق وظيفة تأثيرية تحرض و تثير انتباه القارئ عبر الترغيب في شيء الترهيب من شيء آخر الترغيب في الشهادة و الترهيب من الكفر و الانحراف و الموت قتيلا.

إن العلامات التي استند إليها النص لتحقيق دلالات معينة كان من أبرزها أساليب ألحكي و السرد و كذا الأساليب الشعرية التي تعد أبرز الأساليب العربية التواصلية، و هما يحيلان على ممارسة إنسانية معينة ارتبطت بواقع اجتماعي مهووس بسماع الحكايات و غرائب القصص و كذا تداول الشعر و التغني به ،و خاصة أشعار العشاق و المجانين ،و بهذا يتحقق الانفتاح على إبداع حضارة إنسانية ارتكزت على فنون الأدب و خاصة الشعر – ديوان العرب– لحفظ موروثها و تراكمات معارفها وخبراتها على اختلاف العهود و العصور .

و لما كان للقص الغرائبي و العجائبي في مخيلة العربي من تأثير و جذب،و ما كان للشعر العربي من شد و تشنيف لأسماع الناس و تغذية لمشاعرهم ،استطاع النص هنا أن يحقق نفس الأثر و نفس الجذب لمخيلة القارئ عبر تلك العناوين العامة و الفرعية و هاتيك الأساليب الأدبية .

وعلى ذكر الأساليب نعرج على أسلوب واحد كان العرب يعولون عليه في نقل الأخبار بأمانة و صدق هو أسلوب السند و التواتر في نقل الخبر ،و هي طريقة كشفت و أحالت على منهج علمي عرفه العرب المسلمون لتحقيق درجة كبيرة من الأمانة في النقل ،فالخبر هنا يمر عبر قنوات تواصلية و عبر

شخصيات ثقاة لها مكاناتها العلميـة و الاجتماعية ،فأسلوب السرد هنا وتقنياته تحيل على سمـو حضاري و تطور علمي و منه :

– حكى أبو الفرج بن الجوزي قال : ذكر لي شيخنا أبو الحسن علي بن عبد الله أن – ذكر التميمي في كتاب الامتزاج عن أبي زيد النحوي عن رجلا من أصحاب الحديث قال :– و هو ما أخبرنا به الشيخ الإمام العلامة الحافظ علاء الدين أبو عبد الله .....

– ذكر أبن داود في كتاب الزهرة – أخبرنا الشيخ علاء الدين مغلطاي قال : حدثني .– حكى ابن عبد ربه في العقد الفريد عن محمد بن الحجاج و كان راوية بشار قال :– قال ذو النون المصري في ماذكره عبد الله محمد بن جعفر القنطري في أماليه:.....

هذا إضافة إلى أن كل حكاية عاشق معتمد على الشعر أثرا للنص و تحقيق لأهداف و دلالات أخرى ،و يمكننا إدراج هذه التقنية ضمن النص الموازي و الذي أشار إليه جينات بالمقدمات أو التوطئة أو التقديم ،و هي عتبات أولية في بداية القص و نقل الأحداث .

هذه الأداة التواصلية و الحكاية الخبرية لها وظيفتها و دورها في السياق التناصي الذي جاءت فيه فهي تدعم و تؤكد كلام و أخبار الكاتب و تحيل على أكثر من مرجع اعتمد هذا الأسلوب ،و من صيغها السائدة – ذكر لنا ،أخبرنا ،قال فلان ،حكى فلان ،عن فلان....– و هي صيغ توح للقارئ بصدقية ما ينقل و تؤكد تناقل الخبر من شخص إلى آخر و هم أشخاص معروفون بأسمائهم و مكانتهم العلمية أو الاجتماعية .

و إن الشكل الآخر الذي يعول عليه في هذه النصوص كعلامة داعمة للحكايات هو – الديوان– الذي حفظ تراث العرب و خزن عواطفهم و مشاعرهم و عقائدهم و عاداتهم،و بإمكانه هنا في هذا النص أن يلعب نفس الدور ،دور الحفاظ على مضمون الحادثة مثله مثل ناقلي الأخبار و الرواة ،ليحقق الصدقية و يدعمها و ينقل الحكاية إلى القارئ نقلا لا يبتعد عن صفته السابقة في نقل الموروث .

فكما العناوين الفرعية تعلن عن كيان النص و تؤطره نجد إلى جانبها مجموعة من العلامات المبثوثة في ثناياه و التي أمكننا تسميتها بالمقدمات أو الافتتاحيات التي تدعم التوجه التناصي ،المعلن عنه منذ البداية ،منذ العنوان الرئيس –ديوان الصبابة– فهناك مستويات متعددة للتناص أسهمت النصوص الموازية الجزئية في تثبيتها و ترسيخ التعالق بين الكتاب و الموروث العربي ،و قد أشرنا إلى بعض من هذه المفاتيح المختلفة التي دلت على حفاظ أبي حجلة التلمساني على أساليب الكتابة العربية و انتمائها لحضارة معينة،وأكدت التزامه بجعل عنوان كتابه عنصرا ضروريا في تشكيل الدلالة ،وعلامة يغلب عليها الطابع الإيحائي لأنها كانت مشبعة برؤية للعالم و تحوي قيم متنوعة،وكان بالفعل وسيلة استنطاق للبنيات الدلالية ،فالعنوان هنا أوجد فعلا النص و كونه كما يرى شولتز.

هذا بالإضافة إلى العناوين الفرعية التي تناسلت من العنوان الرئيس و استمت في تعضيد جسد النص و إغنائه بالدلالات المختلفة،و هكذا العنوان عد رسالة تضمنت دلالات شتى و كشفت رؤية خاصة للعالم و حققت الوظيفة التناصية التي أحالت على الماضي الثقافي و بينت المرامي الإيديولوجية .

المراجع

1- روبرت شولتز .السيمياء و التأويل .تر سعيد الغانمي .عمان .ط1 .1994 .ص : 73.
2- ديوان الصبابة.ابن أبي حجلة التلمساني.تح.محمد زغلول سلام .منشاة المعارف.الإسكندرية.
3- ديوان الصبابة.ص 13-14.
4- ينظر.بيير جيرو .علم الإشارة –السيميولوجيا- تر.منذر عياشي .ط1 1988.ص : 153.
5- الديوان.السابق.ص:305.
6- نفسه.ص: 305.
7- السميوطيقا و العنونة.جميل حمداوي.عالم الفكر.المجلد 25 .العدد03 .يناير/مارس 1997.المجلس الوطني للثقافة.ص:101.
8- الديوان.السابق.ص:307.